سينما

«النهر» للفرنسي دومينيك مارشي

تحقيق سينمائي في موت الأنهار

في جديده، يشتغل الفرنسي دومينيك مارشي على الأنظمة البيئية كالأنهار، فهذه مورد طبيعي أساسي قامت عليه الحضارات البشرية على مرّ العصور

سعيد المزواري

منذ أكثر من 20 سنة، لم يتوقّف دومينيك مارشي (1972) عن أفلمة الطبيعة القروية وتغيّراتها في فرنسا. إنّه اليوم أحد أهم ممثلي تيار السينما الإيكولوجية، بفضل وثائقيات مهمّة، كـ«زمن البركات» (2010)، الذي يحقّق في قدرة الفلاحة الفرنسية على الإجابة عن سؤال الاستدامة، وضرورة إحداث هزّة عميقة في النظم الاقتصادية والسياسية، لتلافي الانعكاسات الوخيمة للزراعة المكثّفة (مبيدات، أسمدة كيماوية، وغيرها) على استنزاف التربة. أو عملِه، ذي العنوان الجميل «لا إنسان جزيرة في حدّ ذاته» (2018)، حيث يتنقّل بين أرياف إيطاليا وسويسرا والنمسا، بحثاً عن سبل لمّ الإرادات الفردية في نظم محلية وتعاونيات، تسعى إلى أنْ تجعل من وقعها على استغلال الطبيعة شأناً سياسياً جماعياً، يضمن العيش الكريم، ومستقبلاً بيئياً مستداماً ومتناغماً.

في فيلمه الطويل الرابع، «النهر» (2023) -الفائز بجائزة «جون فيغو» المرموقة، التي تكافئ أصالة أعمال المخرجين، وجرأتها واستقلاليتها. يواصل اشتغاله على الأنظمة البيئية، من خلال الأنهار، هذا المورد الطبيعي الأساسي، الذي قامت عليه الحضارات البشرية على مرّ العصور، من دجلة والفرات في العراق القديمة، إلى النيل في مصر، مروراً بالغانج الهندي ويانغتسي في الصين.

بحسب تقارير صادرة عن «منظمة الصندوق العالمي للطبيعة» (WWF)، تتعرّض أنهار عدّة في العالم لخطر الجفاف، ما يؤثّر في ملايين السكان، ويدمّر التنوع البيولوجي على نطاق واسع. يركّز مارشي على أنهار «غاف» Gaves (مجاري مياه قوية تنطلق من سلسلة جبال «بيرينيه» وتصبّ في المحيط الأطلسي)، مقتفياً -في مشهد افتتاحي- جهود جمعية تجمع النفايات البشرية من النهر وتدوّرها، عبر لقطات مقرّبة لسعي أعضائها الحثيث، ما يجعلنا نلمس الإيمان العميق الذي يكتنفه عملٌ مضنٍ، وذو تأثير محدود، كهذا. يقترن شعور أليوتوبيا، المنبعث من هذه المشاهد الافتتاحية، بلمسة رثاءٍ دفينة لماضي الطبيعة، لصنع جوّ استثنائي يكمن وراء فرادة «نهر»، ووقعه القوي على المشاهد.

بعد ذلك، يفرد «النهر» طرحاً قوياً حول مخاطر تدنّي صبيب الأنهار، وتلوّث مجاريها، على التنوّع البيولوجي والسمكي، بالانكباب على مصير الـ«سَلمون»، الذي صعد لآلاف السنين مجرى المياه العذبة، عكس التيار، لوضع بيضه. غير أنّ انخفاض الصبيب، والآثار الضارة لنشاط الإنسان على تركيبة الماء وجغرافيا الأنهار، يعقّد مهمّة الـ«سَلمون» يوماً بعد يوم، ما يهدّد استمرارية طقس أزلي، وينبئ باختفاء هذا النوع المترحّل. في مشهد جميل، يذكّر بالدوائر التي يسجلها الزمن على جذع الأشجار في «فرتيغو» (1958) لألفرد هيتشكوك، نتابع دراسة علمية لحجر صغير، يُستخرج من الأذن الداخلية لـ«السَلمون»، ينشأ عن ترسّبات متراكمة، تحمل في طياتها ذاكرة لتنقلات هذه الأسماك، وتركيبة الأوساط التي تعبرها في حياتها القصيرة. توضح الدراسة، بشكل مؤثّر، حجم الإجهاد الذي تتعرّض له، جرّاء تلوّث محيطها، بسبب الصناعات الكيماوية، وانخفاض صبيب الأنهار، بفعل السدود وأنشطة بشرية أخرى. هذا تجلّ بارع لقدرة السينما على الولوج إلى اللامرئي.

لا تعليقاً مهوّلاً، أو موسيقى صاخبة، في «النهر»، بل مزاوجة خلّاقة بين مشاهد تلتقط أناساً، يسعون إلى عكس مفعول الإنسان على الطبيعة، بدراسة وقع التحوّلات، ومحاولة فهمها أولاً، قبل أن يقتسموا رؤيتهم للطبيعة، وعلاقتهم اليومية بها. ثمّ يقدّمون تصوّراً شخصانياً للوضع المعقّد، واقتراحات واقعية لحلّه. عكس الوثائقيات التلفزيونية، التي تبئّر على الإشكالات، وتنسج حولها إثارة سهلة ربما تُنفّر المشاهد، يحمل «النهر» في أسلوبه انعكاساً لمعنى التناغم نفسه الذي ينادي به في طرحه، حين يمنح حيّزاً مهماً للالتصاق بإيقاع عيش شخصيات، كحارسة نهر ومسؤولة جمعية حماية الأنظمة المائية تقتسم، بابتسامة على محياها، شغفها بالأنهار والصيد المسؤول، قبل أنْ تطلق جملة مدوّية: «بعد 50 عاماً، من المحتمل أنْ تجفّ كلّ الأنهار».

في مشهد آخر، يظهر مدير المحمية الوطنية لـ«بيرينيه» عابراً نهر «دولورون» على قدميه، وموضحاً أنّه كان يقوم بذلك سباحة في شبابه. الانخفاض المهول لمنسوب المياه، وتغيّر التنوّع البيولوجي لأنهار «غاف»، ينعكسان أيضاً في اختفاء السلطعون النهري، أكثر أحياء المياه العذبة هشاشة وتأثراً بمظاهر التلوّث. يرافق مارشي نساء ورجال نذروا حياتهم لبعث قليل من الأمل في إعادة الحياة إلى النهر، إلى أنْ يصل إلى مشهد من داخل صفّ في «المدرسة العليا للأساتذة»، يُثير فيه أستاذ انتباهَ طلبته إلى أنّ «كتلة أوليت دو غوب الجليدية»، التي تعدّ أحد أهم منابع نهر «بو»، مُهدّدة بالذوبان كلّياً بعد 30 عاماً فقط، لكنّ نفاد بطارية المحمول يُهدّد بانقطاع عرضه. لمحة ذكية للطابع الاستعجالي لمعضلة الكتل الجليدية.

يضبط دومينيك مارشي إيقاع فيلمه على مشاهد تأملية، يغدو لجريان الماء فيها مفعول شبه تنويمي، كأنّه يلفت الانتباه إلى هذه المادة السحرية والأساسية للحياة، حتى نراها بعين جديدة، ونعيد التفكير في علاقتنا معها قبل فوات الأوان. ما يبدو أنّه منظر مألوف لنهر طبيعي، هو في العمق مجرى لحياة معقّدة وهشّة، تزخر بكائنات غير مرئية، يتأثّر توازنها بتصرّفاتنا، ومن مسؤوليتنا الحفاظ عليه. لعلّ قيمة الوثائقيات الكبرى تكمن في لفتة الاقتراب من الأشياء، لرؤيتها من وجهة نظر مختلفة عن التناول الإعلامي المتسرّع أو الاعتيادي، وأخذ الوقت اللازم (لطول اللقطات دور حاسم في ذلك) لتأمّلها. هكذا، يغدو الماء المنساب شخصية رئيسية بالغة التأثير، لا صوت لها غير أقوال البشر الملتزمين بقضيتها. تقول شخصيات «النهر» كنوزاً: «الماء عبارة عن مجرى وليس خزّاناً رهن إشارة الإنسان»، «على الإنسان أنْ يتكيّف مع المناخ، لا العكس». أقوال تبدو بديهية، لكنْ جُلّ سياسات الإنسان تمضي في الاتجاه المعاكس لها.

في مشهدٍ ليلي بديع يختم الفيلم، نلتقي بعثة من علماء الطبيعة، المختصين بدراسة الحشرات، نَصَب رئيسها قماشاً أبيض، مع إضاءة مُسلّطة عليه، ليغدو شاشة داخل الشاشة (خاصة في قاعة سينما)، ترسو عليه الحشرات من شتّى الأنواع (بعوض، فراشات ليلية، إلخ.)، بينما يسعون إلى تصنيفها وتوضيح المُهدِّدة منها. الحشرات تقع في الصفوف الأولى لـ«الانقراض الهولوسيني»، أو الموجة السادسة من الانقراض الجماعي، إذ «اختفى 80 بالمائة من الأنواع الحشرية، التي تعيش في أوروبا، في الأعوام الـ30 الأخيرة». يوجد في «نهر» دومينيك مارشي ما لا يوجد في بحارٍ من الأفلام الوثائقية الإيكولوجية، التي تُنجز سنوياً. سرّ ذلك إيقاعٌ سلس، يلتصق بعيش الشخصيات التي التقاها المخرج وطاقمه الصغير (مدير التصوير مارتن رو، ومهندسا الصوت ميكاييل كاندلمان وغييوم فالي) على ضفاف الأنهار، من دون أسلوب الأطروحة، أو سعي إلى المناورة. لكنّه ينطوي على لفتة سينمائية من فئة السهل الممتنع، التي تنفذ إلى عمق الأشياء، وتستخلص حقيقتها، ويقول المخرج عنها: «الكاميرا أداة للرؤية. في حالتي الخاصة، إنّها أداة لتركيز الانتباه. يتماشى اختيار النسبة الباعية 1,37 مع هذه الروح: تركيز الإطار. «النهر» فيلمٌ يلفت الانتباه. فيلمٌ حول أناس يشاهدون الأشياء. يمكن أيضاً أنْ ننظر إليه كفيلم جردٍ حول عمليات جرد».

> أفلمةٌ سينمائية للطبيعة القروية وتغيّراتها في فرنسا

دومينيك مارشي في حفلة منحه «جائزة جان فيغو» في 21 نوفمبر 2023 (لايفنس بوللكي/Getty)

اعتقال يستعيد الماكارثية الأميركية

هذا تاريخ لا ردّة فعل فقط

نديم جرجوره

اعتقال سنان أنطون (كاتب وجامعيّ عراقي) في جامعة نيويورك (23 إبريل/ نيسان 2024)، لدفاعه عن طلّاب يعتصمون وينتفضون ويواجهون من أجل فلسطين، محطة جديدة في مسلسل الجنون الذي يُقيم فيه غربٌ (سلطات حاكمة أساساً)، يدّعي ديمقراطيةً لكنّه يُمارس قمعاً، ويُشعل حرباً بحجّة إنقاذ شعوب «متخلّفة» من سطوة ديكتاتوريات تحكمها، لكنّه يتفوّق على الديكتاتوريات تلك، كما على نفسه، في منع وقهر ومحاصرة ونبذ وتغييب وتنكيل، وهذا كلّه حالياً معنويّ أكثر منه جسدياً، إلى حدّ ما. الاعتقال غير مُفاجئ، لأنّه حلقة في مسار يبدأ بُعيد لحظاتٍ من تنفيذ «طوفان الأقصى» (7 أكتوبر/تشرين الأول 2024). الولايات المتحدّة الأميركية غير مختلفةٍ عن دول أوروبية، كألمانيا وفرنسا وبريطانيا. هذا عاديّ، لأنّه جزءٌ من تفكير وممارسة غربيّيْن، وفلسطين شاهدةٌ على ذلك منذ 76 عاماً (النكبة، 15 مايو/أيار 1948). كلّ كلامٌ سيكون مُكرّراً، مع أنّ كتابات عربية عدّة تكشف وقائع وحقائق، وتواجه تزويراً إسرائيلياً، محضّناً بصهيونيّة تسلب اليهوديّة من كثيرين وكثيراتٍ يساهمون، هم . هنّ أيضاً، في كشف وقائع إبادة، وحقائق تزوير.

ما يُحرّض على كتابةٍ، منبثقةٍ من اعتقال سنان أنطون، الذي يُطلَق سراحه بعد ساعات بانتظار موعدٍ لـ«محاكمةٍ» (!)، كامنٌ في تعليقٍ للروائي اللبناني الياس خوري (فيسبوك، 23 إبريل/نيسان 2024)، يتضمّن وصفاً دقيقاً وصائباً ولامعاً في اختزال المشهد الأميركي لحظة الاعتقال. يكتب خوري أنّ أنطون «بين أيدي الطغاة الأميركيين»، معتبراً هؤلاء «تلامذة» ماكارثي. أيّ أنّه يستعيد حقبةً، غير بعيدة زمنياً عن راهن الجنون الغربيّ الحالي، تُعتبر إحدى أسوأ الحقبات التاريخية في سيرة «أميركا».

وينونا رايدر في «البوتقة»: مطاردة «الساحرات» مستمرّة إلى اليوم (الملف الصحافي)

فالاسم يُحيل إلى جوزف ماكارثي، السيناتور (1947 . 1957) الذي تكاد وظيفته هذه تضمحلّ في سجله، بسبب رئاسته «لجنة مجلس الشيوخ الأميركي للأمن الداخلي والشؤون الحكومية» (1953 . 1955)، التي تُنكّل بكلّ أميركيّ وأميركية، بمجرّد شُبهة «اتّهام» بميول يسارية شيوعية مناوئة للأمّة الأميركية، بحسب محافظين متشدّدين، وماكارثي أبرز ممثّليها. هذا من دون تناسي افتراءات وأكاذيب وأحقاد وانتقام، تؤذي كثيرين وكثيرات.

وماكارثي نفسه غير مُنفضٍّ عن هوليوود، إذْ يشنّ حملة مُرعبة ضد عاملين وعاملات فيها، و«البوتقة (The Crucible)»، مسرحية (1953) الأميركي آرثر ميلر، انعكاسٌ بديع لها، تقتبسه السينما مرّتين: «ساحرات سالِم» (1957) للبلجيكي ريمون رولو (إيف مونتان وسيمون سينيوري وميلان دومنْجو)، و«البوتقة» (1996) للبريطاني نيكولاس هايتْنر (دانيال داي . لويس وونونا رايدر). المسرحية غير مرتبطةٍ، مباشرةً، بالحملة الماكارثية، فـ«مطاردة الساحرات» تعبيرٌ عن حملات كنسية في أوروبا وأميركا الشمالية، أواخر «العصور الوسطى»، وخاصة في «عصر النهضة»، ضد متّهمات بممارسة السحر (وهذا إسقاطٌ على تفكير وممارسة ترفضهما الكنيسة المسيحية)، والحُكم يتمثّل بمطاردات واضطهاد وإدانة. استعادة «ماكارثية هوليوود» تكشف قذارة المطاردة والاضطهاد والإدانة، ووحشية العقاب، والشرخ القاسي الذي يُصيب صناعة السينما، والخوف الذي يمزّق صداقات وعلاقات مهنيّة. وهذا غير مختلف كثيراً عن الحاصل راهناً، وإنْ بشكلٍ آخر، أبرزه يتمثّل بطلّاب وطالبات ينشطون من أجل فلسطين، فيكونُ الردّ نفسه: مُطاردة واضطهاد وإدانة. هذا نواة عقلٍ أميركي، وبالتالي غربي. العالم ينهار، فسيرته حافلة بعنف وكذب وتزوير ودم. هذا تاريخٌ، لا مجرّد ردّة فعل، ومصلحة آنيّة.

أفلام جديدة

■ Wanted Man لدولف لاندغرين إخراجاً وتمثيلاً، مع كريستينا فيلا (فيسبوك): تبادل لإطلاق الرصاص في حرب جديدة بين عصابات مختلفة يؤدّي إلى مقتل عملاء عديدين في «إدارة مكافحة المخدرات (DEA)» الأميركية. هذا يدفع ضابط شرطةٍ كبيراً في السنّ إلى تعقّب شاهد عيان، ثم مرافقته عبر الحدود. لكنْ، عندما يعلم أنّ الهجوم نفّذته «قوات أميركية» (!)، لا يعود يعرف بأيّ جانب يُمكنه الوثوق.

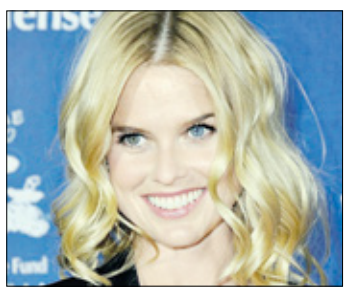

■ Cult Killer لجون كيّياس، تمثيل أليس إيف (IMDb) وأنتونيو باندبراس وشيلّي هانينغ: في حانة ليلية في العاصمة الأيرلندية دبلن، تلتقي كايسي هولت بمن كان يرعاها سابقاً، المحقّق الخاص ميكائيل تالّيني، المدمن على الكحول. تمرّ خمسة أعوام، وكايسي أصبحت اليوم مُحقّقة خاصة بدورها، لكنّها تعمل معه. سلسلة مفارقات تحصل تدريجياً، ومسائل قديمة وراهنة تظهر، مُثيرة أزمات عدّة.

■ In The Fire لكونور ألّين، تمثيل آمبر هيرد (فرانس برس) وإدواردو نوروييغا وصوفي آمبر: عام 1890، يسافر طبيبٌ وزوجته إلى مزرعة نائية لرعاية صبيٍّ مُصاب باضطرابات، لكنّه في الوقت نفسه يتمتّع بقدرات لا يُمكن تفسيرها. هذا يؤدّي إلى إشعال حربٍ بين العِلْم والدين، سيكون طرفُها الآخرُ قسّاً محلّياً يعتقد أنّ الشيطان يسيطر كلّياً على الصبيّ.

■ Premalu لغيريش آي. دي.، تمثيل ماميتا بايجو (فيسبوك) وناسْلِن كاي غافوور وشِيام موهان: ساشين طالبٌ يتابع دراسته في حيدر أباد. بعد فشله في الارتباط بعلاقة مع أنجالي التي ترفضه، ومحاولته الانتقال إلى المملكة المتحدة لإكمال دراساته العليا (يرفض طلبه للحصول على تأشيرة دخول)، يلتقي رينو، فيُغرم بها فوراً. مع ذلك، يجد نفسه عالقاً في معضلة، ما يؤدّي إلى تعقيداتٍ ومتاهاتٍ ومسالك غريبة، لكنّها ستكون مُسلّية للغاية.

■ How To Date Billy Walsh لألكس بيلّاي، تمثيل سيباستيان كروفت وشاريڤْرا شاندرن (Getty): آرتشي يعرف ميلي منذ ولادتهما، إذْ تمّ تبادلهما في المستشفى. بعد هذا الخطأ، لم تنفصل العائلتان. يكبر الطفلان معاً، وينمو حبّهما لأفلام قديمة. في نشأته، يحاول آرتشي الاعتراف بحبّه لميلي، لكنّ هناك شيئاً ما يتدخّل في خططه. يُصمّم على البوح لها بكلّ شيء. فجأة، يصل الطالب الأميركي الجديد بيلي والش، فتقع ميلي في سحره.